

الأخلاقية الرسالية.. بناء وهدم



«لا يمكن للعمل الرسالي أن يشقَّ طريقه ويؤثر في مشاعر الناس وعواطفهم بعيداً عن أخلاقية وسلوك من نمط متميِّز خاصٍّ، يجذب النفوس والقلوب نحوه، يشعُّ بالدفع ويفيض بالحنو، ويمتلئ بالصدق والصفاء، ويتميِّز بالتواضع والاستقامة... هذه الأخلاقية الهادفة المرّبية المسؤولة، والسلوك الهادي يحطم صنم الهوى، ويكسر شوكة الذات، ويمارح جموح الأنا ويركّع نزوة الغرور والكبر والعجب... ويلوي سرعات البطر والكسل والزهو والرياء، ويقف موقف المقوِّم من عثرات النفس الأمّارة بالسوء وطفحات الشهوة وانفلات النزوة. وتلك الأخلاقية الإلهية في طهرها ونقاها ونصاعتها، كما هي الرسالة في قوتها وربّانيّتها وعظمتها... أخلاقية يصف القرآن الكريم أحد روّادها العظام رسول الإنسانية محمد (ص) في قوله تعالى: (وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ) (القلم/ 4). ما أروع هذه الشهادة الإلهية والثناء الرباني حيث (الخلق العظيم) ومع هذه الشهادة العظيمة من ربّ الكون وخالق الوجود، فلا تجبر ولا انتفاخ ولا تعالي ويبقى (ص) في حالة التواضع والتوازن والتماسك. الأخلاقية التي لا تحمل همّ ذاتها فقط، وإنّما تفكر بالعنت الذي يصيب الناس والمشقة التي يواجهونها، والعناء الذي يتعرّضون له، والضغط التي لا تنفك عنهم... فيتألم (ص) لذلك، ويحرص بذل الجهد لانقاذهم، ويسعى ما يستطيع حسب إمكانياته في هذا السبيل، قال تعالى: (عَزِّزْ عَلَآيَهُ مَا عَدَّتْهُمْ حَرِيصٌ عَلَآيَهُمْ بِرَأْمٍ رَأَوْفٌ رَحِيمٌ) (التوبة/ 128). أخلاقية يتجسّد فيها اللين والتسامح وخفض الجناح، بعيداً عن الغلظة

وإيّاهم، والخشونة معهم، والقسوة عليهم، والشدة على نفوسهم... قال تعالى: (فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنُدْهِمُهُمْ وَلَوْ كُنْزٌ فَطَّيًّا غَلِيظَ الْقُلُوبِ لَنُفَصِّسُوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ) (آل عمران/ 159). فلولا اللين ما تآلفت القلوب حوله، ولا تجمعت المشاعر إليه ولولا الحلم الذي يسامح به جهلهم وضعفهم ونقصهم، ولولا الدماثة والرعاية والعطف عليهم، ولولا التواضع والرقّة بهم...، لما أمكن أن يحصل ذلك التأثير في النفوس، حيث تهفو القلوب نحوه، وتنشد الأرواح إليه وتتفاعل الأحاسيس والمشاعر معه... ثمّ تنفتح عليه (ص) النفوس جميعاً لتتلقّى منه الرسالة، وتأخذ منه الوحي، وتستجيب للمبدأ وتخضع للأفكار وتهيم بالعقيدة التي حملها صاحب هذا الخلق العظيم. وكيف لا تعشق النفوس أخلاقية المواساة والاخلاص لهم؟ وكيف لا تمتلئ القلوب حبّاً ووفاء لمن يحمل همومهم، ويضمّد جراحاتهم ويعطف عليهم، ويمتصّ آلامهم؟ وكيف لا تتفاعل المشاعر وتلتهب الأحاسيس ووفاءً وصدقاً لمن صدقهم ووفى لهم وأراد إنقاذهم، قال تعالى على لسان رسوله موسى (ع): (حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَاتٍ مِنْ رَبِّكُمْ...) (الأعراف/ 105). أخلاقية بعيدة عن الترف والميوعة، وبعيدة عن البطر والتخمة، يتألّق فيها التواضع ويتمثل فيها الزهد، ويطبعها طابع الخشونة وجشب العيش... وذلك ما جسّدته حياة الرسل (ع) كما يستعرض الإمام علي (ع) لنا ذلك في نهج البلاغة حيث يقول في عيسى (ع) ما يلي: (وإن شئت قلت في عيسى بن مريم (ع)، فلقد كان يتوسّد الحجر، ويلبس الخشن، ويأكل الجشب، وكان إدامه الجوع، وسراحه بالليل القمر، وظلاله في الشتاء مشارق الأرض ومغربها، وفاكهته وريحانه ما تنبت الأرض للبهائم... دابته رجلاه، وخادمه يداه) الخطبة/ 160. وقال (ع) في موسى بن عمران (ع): (وإن شئت ثنيت بموسى كليم الله (ع) حيث يقول: "ربّ إني لما أنزلت إليّ من خير فقير" والله ما سأله إلا خبزاً يأكله، لأنّه كان يأكل بقلة الأرض، ولقد كانت خصرة البقل تُرى من شفيف صفاق بطنه لهزّاله وتشدّب لحمه (أي تفرقه) الخطبة/ 160. وقال (ع) عن زهد داود (ع) صاحب المزامير: (... فلقد كان يعمل سفائف الخوص بيده ويقول لجلسائه: أيّكم يكفيني بيعها؟ ويأكل قرص الشعير من ثمنها) الخطبة/ 160. ومن أخلاقية الأنبياء (ع) البعد عن البطر، ورفض التجبّر والتكبّر، واجتناب الغرور...، مهما عظمت الإمكانيات، ومهما توفرت القوة والقدرة، ومهما تصاعدت أسباب المنعة وتزايدت مفردات السلطة من جنود وأموال وخيل ورجال... فالتواضع يبقى سمتهم والخشوع الله يبقى خصيصة لأخلاقيتهم، والشكر والطاعة والإنابة للخالق يبقى منهجهم... ولناخذ من القرآن الكريم مفردة في هذا المجال تعكس هذا الخلق العظيم من قصة

سليمان (ع) حيث يصل إلى علمه (ع) أن امرأة وقومها قد زيّن لهم الشيطان عبادة الشمس من دون الله، ويقال إن اسم هذه المرأة (بلقيس) كانت تسكن في سبأ حيث النعم الكثيرة، لقد بعث سليمان (ع) لها برسالة يدعوها إلى الإيمان بالله نصّها ما يلي: بسم الله الرحمن الرحيم: "ألا تَعْلُو عَلَيَّ وَأَتُونِي مُسْلِمِينَ". وتردّ هذه المرأة على الرسالة الموجهة إليها في تفصيل لا نريد التحدّث عنه هنا، مما يستدعي الأمر أن يخاطبها سليمان (ع)، برسالة جوابية أخرى، تحكيها الآية القرآنية على لسان سليمان (ع) مخاطباً رسول (بلقيس) وقومها... بقوله تعالى: (ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكِ هَٰمْ فَلَا تَأْتِيَنَّهُمْ بَرْجُدُونَ لَا تَقْدِرُ لَٰهُمْ إِلَّا نَهْيًا آلَ أَبِي هَٰشِمٍ وَلَٰتُ أَخْرِجَنَّكَ مِنْهَا أَدْلَلَّةً وَهَٰمْ صَاغِرُونَ * قَالَا يَا أَيْدِي هَٰذَا الْأُمَلَاُ يَبْكُومُ يَا أَيُّهَا تَزِينِي بِعَرَشِكُنَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ) (النمل/ 37-38). فيجيبه أحد الحاضرين باستعداده لاحتضارها فوراً حيث يقول تعالى عن ذلك: (قَالَ عَرَفَرْتُ مِنْ الْجِنَّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ) (النمل/ 39). وينبري جندي آخر يظهر إمكانيته بجلب العرش له بوقت أقصر حيث يقول سبحانه في ذلك: (قَالَ السَّيِّدُ عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ...) (النمل/ 40). كل هذا يحصل لسليمان (ع) ويطمئن إلى قدرة العرض الأخير، وإمكانية تحقيق جلب العرش قبل أن يغمض عينه ليفتحها ثانية، وقد أتى به فعلاً لسليمان... فلما رأى (ع) عرش بلقيس أمامه قال: (هَٰذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنِّي لَأَزِيدُهُ زُكْرًا وَلِمَنْ كَفَرَ فَإِنِّي رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ) (النمل/ 40). إنّه اختبار لسليمان (ع) هل يتكبر أم يتواضع أمام هذه الإمكانيات والقدرات العظيمة؟ هل يسمو أو يتخلّف؟ هل يشكر أم يكفر...؟ ويرج سليمان منتصراً على ذاته، ويقرّ فضل الله عليه: "هذا من فضل ربّي" وذلك إقرار بالنعمة، وتواضع للخالق الذي منحها له...، ومع كلّ هذه الإمكانيات فهو يعمل في سفائف الخوص، مستعيناً بمن يبيعها له ليأكل من ثمنها أقراص خبز الشعير... ثمّ يصف (ع) رسول الله (ص) حيث يقول عنه: (... ولقد كان (ص) يأكل على الأرض ويجلس جلسة العبد، ويخضع بيده نعله، ويرقع بيده ثوبه، ويركب الحمار العادي، ويردف خلفه...) الخطبة/ 160. وعن الامام الحسن (ع) أنّه سأله هند بن أبي هالة التميمي، وكان وصفاً عن بعض صفات رسول الله (ص) فقال: كان رسول الله (ص) متواصلاً بالأحزان، دائم الفكرة، ليست له راحة، ولا يتكلّم في غير حاجة، طويل السكوت... لا تغضبه الدنيا وما كان لها، فإذا تعوطني الحقّ لم يعرفه أحد، ولم يقم لغضبه شيء حتى ينتصر له... وكان (ص) يؤلف أصحابه، ولا ينفرهم، ويتفقدهم ويسأل الناس عمّا في الناس، فيحسنّ الحسن ويقوّيه، ويقبّح القبيح ويوهنه، لا يقصر عن الحقّ، ولا يجوزّه، الذين يلونه من الناس خيارهم، أفضلهم عنده

أعمّهم نصيحة، وأعظمهم عنده منزلة أحسنهم مواساة ومؤازرة، وكان (ص) دائم البشر، سهل الخلق، لين الجانب، ليس بفظّ ولا غليظ. وكان (ص) يقول: "إذا رأيتم صاحب حاجة فارفدوه". ويقول عنه الامام الصادق (ع): "كان (ص) يقسم لحظاته بين أصحابه، فينظر إلى ذا، وينظر إلى ذا بالسوية ولم يبسط رسول الله ﷺ رجليه بين أصحابه قط". يقول (ص) عن سجاياه لأبي ذر (رض): "يا أبا ذر: إنّي ألبس الغليظ، وأجلس على الأرض، وألحق أصابعي، وأركب الحمار بغير سرج، وأردف خلفي، فمن رغب عن سنتي فليس مني" الكافي/ ج8، ص131. وعن ابن عباس قال: حدّثني عمر بن الخطاب قال: دخلت على رسول الله ﷺ وهو على حصير، قال: فجلست، فإذا عليه إزاره، وليس عليه غيره، وإذا الحصير قد أثّر في جنبه، وإذا بقرضة من شعير نحو الصاع، قرط في ناحية الغرفة، وإذا أهاب معلق، فابتدرت عيناي، فقال: ما يبكيك يا ابن الخطاب؟ فقال: يا نبي الله ﷺ ومالي لا أبكي، وهذا الحصير قد أثّر في جنبك، وهذه خزانة لا أرى فيها إلّا ما أرى، وذاك كسرى وقيصر في الثمار والأنهار، وأنت نبي الله ﷺ وصفوته وهذه خزانة. قال (ص): يا ابن الخطاب: "أما ترضى أن تكون لنا الآخرة ولهم الدنيا" ميزان الحكمة/ ج9، ص673 نقلاً عن الترغيب/ ج4، ص210. وعن ابن عباس قال: "كان رسول الله ﷺ (ص) يبيت الليالي وأهله طاوياً لا يجدون عشاء، وإنما كان أكثر خبزهم الشعير". وعن عائشة قالت: ما شبع آل محمد من خبز الشعير يومين متتابعين حتى قبض رسول الله ﷺ (ص). هذه هي أخلاقية الرواد وهذه آدابهم، وتلك سماتهم وصفاتهم، فلا غرور ولا بطر ولا تجبر ولا استعلاء... بل تواضع ومواساة وتفقد للأصحاب وبساطة العيش واستقامة في السلوك ومشاركة الأُمّة آلامها وهمومها، بعيدين عن زخارف الدنيا وبهرجة الحياة، لا تفتنهم زينتها، ولا يشغلهم متاعها، يكتفون بالقليل البسيط، يفتشون الأرض، ويركبون المركب الخشن، قليلي الراحة، محزونى النفوس، مهمومي القلوب، دائمي التفكير، متواصلين الأحزان... هؤلاء هم الرواد، وهذه هي صفات القادة، وهذه هي سمات الأسوة، وحقّاً هؤلاء هم القدوة التي يتأسى بهم ويسار على منهجهم ويقتفى أثرهم. وأين هذه الصفات من صفات الرموز المفتعلة والشخوص الخاوية التي حكمت لتسلط وتستمع بالحياة، كما تستمتع الأنعام، تلهث وراء الشهوات والنزوات، وتكدح من أجل الإشباع بنهم، وتعمل من أجل السطوة وشره الحاكمية، تبغي وتظلم وتفجر، تمكر وتسيء، تفسد ولا تصلح... مهما كانت العناوين ومهما اختلفت الإدعاءات... فليس المهم شكل الطاغية ولا مدّعياته ولا ما يتدّرس به من الحق الذي يريد به الباطل، إنّما هي الأعمال والفعال، والمواقف والممارسات وكم هي قريبة أو بعيدة من المقياس الأخلاقي الإلهي، يقول تعالى: (إِنَّ اللَّهَ يَأْتُمُّ مُرُءِي الْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ اللَّغْوِ وَالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ) (النحل/90). هذه موازين الخلق الربّاني، وهذه صفات وخصائص السلوك الأخلاقي الرسالي، وهذه سمات

الأخلاقية القيادية التي تُجمِّع ولا تُفرِّق، تُقَرِّب ولا تُبَعِّد، تُوحِّد ولا تبعثر، وتؤلِّف ولا تنفِّر إنَّه الخلق العظيم الذي لا يوجد خير منه عندما يوضع في ميزان المرء يوم القيامة.. يقول (ص): "ما يوضع في ميزان امرء يوم القيامة أفضل من حسن الخلق".. الخلق الذي يتجسَّد فيه العفو والمعروف والمغفرة والصفح، يقول تعالى: (قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتَدَبَّرُهَا أَذَىٰ وَاللَّسَّةُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ) (البقرة/ 263). ويقول سبحانه: (خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ) (الأعراف/ 199). الخلق الذي يتجسَّد فيه الشموخ والعزَّة والإباء والأنفة على الأداء، واللطف واللَّين وخفض الجناح والرحمة للأخوة المؤمنين...، قال تعالى: (أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ...) (الفتح/ 29). وقال سبحانه وتعالى في هذا الصدد موصياً الرسول الكريم (ص): (وَإِذَا خُفِّضَ جَنَاحُكَ لِمُؤْمِنِينَ) (الحجر/ 88). وهكذا تكون الأخلاقية الفاعلة المؤثِّرة، الأخلاقية الأسوة القدوة، الأخلاقية التي يستهدى بهديها ويستنار بنورها، ويستلهم من صفاتها وسماتها، الأخلاقية الموقف والتجسيد والرَّيادة. يقول الإمام علي (ع) في تجسيده لأخلاقية المبدأ: "أأقنع من نفسي بأن يقال لي أمير المؤمنين، ولا أشاركهم في مكاره الدَّهر، أو أكون أسوة لهم في جشوبة العيش". ويقول (ع): "إني لأرفع نفسي عن أن أنهى الناس عملاً لست أنتهي عنه، أو أأمرهم بما لا أسبقهم إليه بعَملي، وأرضى منهم بما لا يرضي ربِّي". هذه أخلاقية الإلتزام، وأخلاقية المفهوم المقترن بالموقف، والموقف المصداق المتجسَّد بالعمل، والفعل الممثِّل للفكرة، والممارسة المعبَّرة عن النظرية. وشتان بين هذا النوع من الأخلاق، والأخلاقية النفعية المصلحية، الأخلاقية الذاتية الأنانية، أخلاق البغي والعدوان والمكر والنفاق، والكيد والفساد... مهما كان عنوانها ولباسها ومظهرها، ولا بدَّ أن يتأسَّى العاملون لله بأخلاقية الصالحين ويعملون جهدهم لبناء أنفسهم وإعدادهم على أسس هذه الأخلاقية، وتركيزها في السلوك والعلاقة والعمل، وتعميقها في النفوس، حيث تهذبُّ بتهذيبها، وحيث تتربَّى بمفاهيمها، وحيث تتجسَّد معالم الشخصية الرسالية من خلال السلوك الملتزم بهدى هذه الأخلاقية التي حدد معالم منهجها وخصائصها الرسل المصطفون، والأنبياء المختارون لتكون لنا نبراساً وقُدوة نحن كعاملين في كلِّ جوانب حركتنا وتعاملنا وعلاقاتنا وفي شؤون حياتنا المختلفة.. فالى الاقتداء بها والتدبُّر في مميزاتها والعمل بمحتواها، ما دُمنا في موضع اقتفاء لآثار هؤلاء الهداة. كما لا بدَّ لنا أيضاً من مكافحة الجوانب السلبية في السلوك الأخلاقي، إذ أنَّ النفس الإنسانية تبتلى بحالات السقم والاعتلال كما هو الجسم، وحيث جنبه الشر إلى جوار نزعة الخير، يقول تعالى: (وَنَفْسٌ وَسْوَءٌ آهًا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا)

دَسَّاهَـلَا (الشمس/ 7-10). ولذلك فإنَّ الضرورة الأخلاقية تقتضي هدم الصفات السلبية، ومكافحة الأمراض الأخلاقية، اقتداءً بالمرسلين والأنبياء (ع)، وتأسياً لهم في مجاهدة الآفات الأخلاقية التي تعرقل خدمة الهدف المبدئي. المصدر: كتاب المنهج الحركي في القرآن الكريم